

الدور العلمي لبعض علماء المغرب الأوسط في مكة المكرمة ما بين القرنين ٧-١٠هـ/١٣-١٦م
(علوم الحديث والفقاه أنموذجا)

د.نجيب بن خيرة

الدور العلمي لبعض علماء المغرب الأوسط في مكة المكرمة ما بين القرنين ٧-١٠هـ/١٣-١٦م
(علوم الحديث والفقاه أنموذجا)

د.نجيب بن خيرة

جامعة الشارقة - قسم التاريخ والحضارة الإسلامية

الملخص

تُعد الرحلة في طلب العلم من أهم ما ميّز حضارتنا الإسلامية عبر العصور، مما أدّى إلى ازدهار الحياة الفكرية في جميع حواضر العالم الإسلامي، وساعد على تيسير الرحلة بين أقطار العالم الإسلامي، عدم وجود العوائق والحواجز؛ لوحدة المسلمين، والتواصل بين أممهم وشعوبهم. وقد ظلت مكة المكرمة وحرمة الشرف عبر تاريخها الطويل خير البلاد وأشرف البقاع، ومما زاد الرغبة عند طلاب العلم لارتياح بلاد الحرمين وجود الأربطة العديدة بمكة والمدينة حيث ساعدت على ازدياد عدد الطلاب لما يجدونه من مساعدات مادية، ورعاية خاصة تضمن لهم السكن والعيش.

وكان دافع بعض العلماء في رحلتهم من بلاد المغرب أو الأندلس إلى أرض الحجاز هو التعريف بجهود علماء المغرب، وبراعتهم في التأليف والتصنيف في العلوم الشرعية، وخاصة في علمي الفقه والحديث

وقد جاءت هذه الورقة العلمية المتواضعة تعالج الدور العلمي لعلماء المغرب الأوسط على خلاف ما كان سائدا في كثير من الدراسات بأن الرحلة من المغرب إلى المشرق كانت للأخذ دون العطاء، وذلك في المحاور التالية:

الكلمات المفتاحية: الرحلة العلمية - المغرب الأوسط - مكة المكرمة - علوم الفقه - علوم الحديث

مجلة دراسات تاريخية
Journal of Historical Studies

**The scientific role of some scholars of the Middle Maghreb in
Makkah Al-Mukarramah Between the 7-10 centuries AH / 13-16 AD
(Sciences of Hadith and Fiqh as a model)**

Dr. Najeeb bin Khaira

University of Sharjah - Department of History and Islamic Civilization

Abstract

The journey in seeking knowledge is considered one of the most important features of our Islamic civilization through the ages, which led to the flourishing of intellectual life in all the cities of the Islamic world, and helped facilitate the journey between the countries of the Islamic world, the absence of obstacles and barriers; For the unity of Muslims, and communication between their nations and their peoples.

Makkah Al-Mukarramah and the Holy Mosque remained the best of the country and the most honorable Bekaa, and what increased the desire of the students of knowledge to visit the country of the Two Holy Mosques was the presence of the many schools in Makkah and Madinah, which helped to increase the number of students because of the material aid they found, and special care that guarantees them housing and living.

And some scholars who traveled from the countries of the Maghreb or Andalusia to the land of the Hijaz were motivated by the definition of the efforts of the scholars of Morocco, and their ingenuity in authorship and classification in the legal sciences. Especially in the sciences of jurisprudence and hadith

This modest scientific paper deals with the scientific role of the scholars of the Middle Maghreb, contrary to what was prevalent in many studies that the journey from Morocco to the Orient was for taking without giving.

مجلة دراسات تاريخية
Journal of Historical Studies

التمهيد

لعل موضوع الرحلات العلمية من أخص الموضوعات التي يبرز فيها التمايز والتنوع في إطار الوحدة، حيث تتمازج الخبرات، وتتأقف الرؤى بين إقليم وآخر، وبين شعب وآخر، ولكن تظل صبغة كل بيئة ماثلة لا تتغير فيما يبدهه العلماء من الفقهاء والمحدثين والمقرئين والأطباء، وغيرهم كل واحد منهم يعبر عن بيئته في ظل المناشط المعرفية المشتركة.

وقد ظلت الرحلة في طلب العلم مظهرا نبيلًا في الثقافة العربية الإسلامية، إذ استمر الناس ينهلون من ينابيع العلم، والسماع من أكابر العلماء، والحرص على أخذ الإجازات عنهم بعد مكابدة الأسفار، وقطع المفاز والقفار، للإقامة في حواضر العلوم، ومراكز الفكر، في المشرق الإسلامي أو في مغربه .

والحق أنه إلى نهاية القرن ٥هـ / ١١م لم يكن مصطلح المغرب الأوسط متداولًا، بالرغم من أنه مجال واسع برزت فيه دول لها سياساتها وعلاقاتها، ومجتمعات لها تقاليد وعاداتها، وحواضر ظلت تنفس على أكبر الحواضر عراقية وتاريخًا، وقد بقي مصطلح المغرب الأوسط غامضًا غموض مصطلح المغرب الأدنى والمغرب الأقصى وذلك لاضطراب حدود الإمارات الإسلامية التي تعاقبت على حكم المغرب العربي (١) .

وقد تباينت المصادر الجغرافية والتاريخية في تحديد مجال المغرب الأوسط حيث أنه خلال القرن ٣هـ ظهر مصطلح المغرب الإسلامي المرادف لشمال إفريقيا على لسان ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ / ٨٧٠م) إلا أن تقسيم بلاد المغرب إلى ثلاث دول في الفترة ما بين ١٦٠هـ إلى ١٨٤هـ سيجمل معه تسميات جديدة (الأغالبة "المغرب الأدنى" - الرستميون "المغرب الأوسط" - والأدارسة "المغرب الأقصى") واستمر التعامل بهذه التسميات إلى عهد الدولة الحفصية - والدولة الزيانية - والدولة المرينية (٢) .

ويعتبر البكري (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) هو أول من استعمل مصطلح (المغرب الأوسط) في مسالكه، وجعل تلمسان قاعدته (٣)، ثم صار هذا المصطلح متداولًا في المصادر الإسلامية فقد اعتبر الإدريسي (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٠م) أن بجاية في زمانه هي مدينة المغرب الأوسط، وهي عين بلاد بني حماد، وأن تلمسان هي قفل بلاد المغرب (٤). ونفس الرأي ذهب إليه الحميري (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م) صاحب الروض المعطار (٥)، كما حدد ابن خلدون المغرب الأوسط بين بجاية وتلمسان وقال إن حدّه من جهة الغرب من وادي ملوية الفاصل بينه والمغرب الأقصى إلى وادي المجمع في جهة الشرق الفاصل بينه وبين إفريقيا (٦).

مع العلم أن بعض المصادر احتفظت باستعمال مصطلح إفريقية والمغرب كلما أصبح المغرب وحدة سياسية (عهد العبيديين - عهد المرابطين والموحدين)^(٧).

والحق أن المغرب الأوسط . (الجزائر اليوم) . لم تعرف دولة مركزية إلا في العهد العثماني (١٥١٨-١٨٣٠م) بينما عرف المغرب الأقصى حضارة مراكش وحاضرة فاس، وعرف المغرب الأدنى (إفريقية) حضارة القيروان ثم حضارة تونس، فكان علماء الجزائر ينتمون جغرافياً إلى هذه الحضارة أو تلك، لأنه ليس لهم في بلادهم (المغرب الأوسط) حضارة تجذبهم أو يجتذبون إليها، عدا بعض المدن التي ازدهرت في وقت محدود مثل تيهرت الرسمية، وبجاية الحمادية، وتلمسان الزيانية..^(٨).

إشكالية الدراسة

على الرغم من أن للمشرق الإسلامي في العراق والشام ومصر الأسبقية المعرفية، والتي نتجت عنها مرجعية في العلوم والمعارف، وغدا المشرق مطلع الأفكار والمذاهب والفرق، ثم تألفت أقاليم أخرى في بلدان الخلافة الشرقية، فإنه مع مطلع القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بدأ عطاء الغرب الإسلامي عامة يأخذ حضوراً متميزاً في المشهد الثقافي، وبدأت مقولة "بضاعاتنا رُدت إلينا" التي أطلقها الوزير صاحب بن عباد عندما فتح كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسي تشهد تراجعاً بسبب إنتاج علمي جديد بدأ يتدفق من بلاد المغرب والأندلس، وبدأ علماء فحول يجوبون الآفاق، وينشرون علومهم بنكهة مغربية جديدة خلال الفترة محل الدراسة، مما جعل فكرة "المركز والأطراف" تشهد تغيراً ملحوظاً!

فالمغرب هو فضاء جغرافي وتاريخي مشترك بين دول إقليم الشمال الإفريقي، وتراوحت علاقات دوله بين موالاته ومعارضة للحكم في عاصمة الخلافة بالمشرق، تتسع وتتكمش حسب الظروف التاريخية، ولكن المغرب ظل محافظاً على خصوصياته مع استيعابه لكل مضامين الحضارة القادمة من المشرق .

إن تحمس أهل المغرب للإسلام الفاتح وثقافته مع يسر العقيدة وبساطتها، وانضباط التشريع ومقاصده، وجمال العربية وبيانها أحدث تقارباً وثيقاً بين المشرق والمغرب وتلاقحاً في الفكر وتمازجاً في الأخلاق وانصهاراً في الطبائع والعوائد مما أنهض المغاربة للرحلة إلى منابع حضارتهم يرتوون منها ويردون حياضها يرتوون ويسقون على حد سواء .

منهجية البحث :

اعتمد البحث على المنهج التاريخي الاستقرائي الذي يرصد ظاهرة رحلة علماء المغرب الأوسط إلى بلاد الحجاز وإلى مكة المكرمة على وجه الخصوص، وجمع المعلومات الخاصة بعلمي الفقه

والحديث خلال الفترة محل الدراسة، والممتدة ما بين القرنين السابع والعاشر الهجريين وهي مرحلة تاريخية مهمة من مرحل الرحلة بين المغرب و المشرق .

١. دوافع الرحلة العلمية وتجلياتها بين المغرب والمشرق

ظلت بلاد المشرق عامة تمثل لأهل الغرب الإسلامي مصدراً ثراً للفكر والثقافة نظراً لأن المشرق فيه مهبط الوحي، ومنبع الرسالة، وبواكير العلوم المرتبطة بالدين من هناك مطلعها، ومن ذاك الإقليم مخرجها، وبالرغم من أن بلاد المغرب عامة ارتقت مرتقاً سامياً في العلم والفن والإبداع، فإن المشرق بقي محافظاً على الكاريزما التي تقضي بأنه القبلة التي يتوجه إليها طلاب العلم وعشاق المعرفة، والمنجم الذي تصنع فيه الشخصيات العلمية التي نفرت من أرض الغرب إلى بلاد الشرق، ورجعت بطاناً بالعلوم من مختلف الثمرات.

ويمكن أن نحصر دوافع الرحلة المتبادلة بين إقليم المغرب وإقليم المشرق في ما يلي:

- الرحلة مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية، وعلامة من علامات التواصل بين جناحي العالم الإسلامي، والارتباط الروحي بين الأمم الإسلامية من جهة والرغبة في تحقيق المصالح المتشعبة والمشاركة بين الجهتين من ناحية أخرى، ساهم في تحقيق هذا الواجب الحضاري .
- لاشك أن وحدة اللغة والدين في جميع أنحاء العالم الإسلامي كانت دافعاً قوياً لرحلة العلماء، وتبادل الفكر، واكتساب الفوائد، ولقاء الشيوخ.
- البحث عن فضائل جديدة لنشر العلم، والبحث عن طلابه في الآفاق حين تضيق بالعلماء بلادهم، ولا يعترف بعلمهم ذو القربى .
- الرغبة في الحصول على الإجازات العلمية في فروع مختلفة من العلوم، يأخذها الطلاب من المشايخ، مما يؤهلهم للفن والتدريس والتحديث بما سمعوه من شيوخهم وأجازوهم فيه، وقد لعبت الإجازة دوراً مهماً في حفظ سند الكتب إلى أصولها، كما أمدتنا الإجازات بمعلومات قيمة عن جغرافية وتاريخية مراكز العلم في العالم الإسلامي وعن انتقال الأفراد إليها.
- الرغبة في العيش في ظل أمير أو خليفة تتراعى الأبناء أنه يجلب العلماء، ويقدرهم حق قدرهم، ويجزل العطاء لهم، ويختصهم برعايته.
- إعتقاد أهل المغرب أنه من أراد شرف السند الصحيح من حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فعليه بالرحلة إلى أقاليم التحديث كمكة والمدينة، وبغداد، والشام، ومصر، وبخارى، ونيسابور، ومرو، وهرات، ونسا، وترمز، للنقل عن المحدثين الأعلام، أم من تلامذتهم، والرواة عنهم
- إن الرحلات العلمية استمرت بين المغرب و المشرق حتى في فترات الاضطرابات السياسية، والضعف السياسي في كلا الإقليمين، فالحياة العلمية ظلت مؤارة بالحركة والنشاط ولم يكن يعيق

العلماء خصومات السياسة، ولا نزاع الأمراء مشرقاً ومغرباً .
□ كان دافع بعض العلماء الرحالة من بلاد المغرب أو الأندلس إلى أرض الحجاز في رحلتهم هو التعريف بجهود علماء المغرب، وبراعتهم في التأليف والتصنيف، على غرار علماء المشرق أم يزيد، وعلى هذا أورد ابن حزم في رسالته عن "فضل الأندلس" مقارنات عجيبة بين العلماء الأندلسيين ونظرائهم المبرزين في المشرق في مثل قوله: ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن محمد بن دراج القسطلي، فلن يكون بأقل شأننا من بشار بن برد والمتنبي، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب، وأحمد بن عبد الملك بن مروان، وأغلب بن شعيب، وعبد الملك بن سعيد المرادي، وكل هؤلاء فحول يهاب جانبهم...^(٩)، ويقول فيها مفاخر الأندلس وأعلامها أيضاً: "وبلدنا هذا. على ناي الدار من محل العلماء فإن تأليف أهله لم تكن لتوجد في فارس والأهواز وديار ربيعة واليمن والشام" ^(١٠) .

□ تأثير النخب الأندلسية التي انتقلت إلى بلاد المغرب وخاصة إلى تلمسان وبجاية وقسنطينة، حاملة معها ذخائر العلم، وابداعات العلماء في الفنون المختلفة، مما شجع طلاب العلم في المغرب إلى الهجرة إلى بلاد الحجاز لنشر ما تعلموه والاستزادة مما حرّموا منه .

□ انتساب الكثير من العلماء المهاجرين إلى بلاد الشرق عموماً والحجاز على وجه الخصوص إلى الأسر العلمية كابن مرزوق والتنسي والمقري وابن قنفذ والعقباني وغيرهم ^(١١) .

□ البحث عن البيئة العلمية حيث تتوفر شروط الطلب مدارس أو تدريسا، دون اعتبار للظروف المعيشية التي تحيط بهم، فلم يعد الوطن هو الهدف الأكبر للرجوع أو الاستقرار، بل الوطن بالنسبة لهؤلاء الرحالة هو ما يرتاح فيه العالم، ويجد فيه علمه وتلاميذه وشيوخه.

□ التصوف كان عاملاً هاماً من أسباب الرحلة، فقد زخرت كتب التراجم والمناقب والرحلة بأسماء الزهاد والمتصوفة الذين شدوا الرحال مشرقاً ومغرباً، طلباً للطريقة عند المشايخ، ورغبة في كشف الحجب والحقائق، عند من جمعوا بين الشريعة والحقيقة، وبحثا عن الطريق السالك للعبادة والذكر والوصول إلى أسمى المراتب، أو شوقاً للقاء الأقطاب والصلحاء من القوم للتبرك بهم، والتمثل بأحوالهم .

٢. مكة المكرمة مركز استقطاب ثقافي :

ظلت مكة المكرمة عبر تاريخها الطويل خير البلاد وأشرف البقاع، تهفوا إليها النفوس، وتعلق بها الأرواح، من إبراهيم عليه السلام إلى يوم الناس هذا، ففيها أول بيت وضع للناس ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦)، حيث رفعت قواعده، واصبح قبلة للطائفتين والعاكفين والركع السجود، جعله الله مباركا وهدى للعالمين، ومن دخله كان آمناً، ومن

جاوره نال الحظوة في الدنيا و الآخرة ..

ومن هنا علفت أفئدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بأمر القري، التي يأتيها رزقها من كل مكان ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَصْطَرَّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ١٢٦) فصار المؤمنون من كل حذب وصوب يشدون الرحال إليها طلباً لأداء فريضة الحج، ومقصداً لأداء النسك والشعائر، مع رغبة في لقاء أهل العلم في رحابها، والفخار بالرواية عنهم، والتحصيل في مجالسهم، وأخذ الإجازات العلمية منهم .

يقول الإمام السخاوي: "وكان للحرم المكي الجمال، بأفراد منتدبين للعلم والتصنيف، من أهله والواردين عليه، في سائر المذاهب وغالب الفنون، بحيث كان حقيقاً بالارتحال إليه لذلك، فضلاً عن كونه محلاً للنسك" (١٢) .

ومما زاد الرغبة عند طلاب العلم لارتياح بلاد الحرمين وجود الأربطة (١٣) العديدة بمكة والمدينة حيث ساعدت على ازدياد عدد الطلاب لما يجدونه من مساعدات مادية، ورعاية خاصة تضمن لهم الأكل والسكن، وقد ذكر الكثير من الرحالة المسلمين الذين زاروا الحرم المكي أو المدني هذه الأربطة وما قابلوه فيها من العلماء الذين سمعوا منهم وأجازوهم في فن من الفنون .
والأربطة في مكة والمدينة لها علاقة بالحجاج الوافدين وبطلاب العلم المجاورين ، وهناك رباطان كانا شاهدين على حركة التبادل العلمي بين المغرب الأوسط و الحجاز خلال فترة الدراسة وهما رباط ربيع ورباط الموفق (١٤) .

وإلى هذا يشير ابن جبير في رحلته إلى الحرم المكي الشريف في القرن السابع الهجري فيقول " والحرم محقق بملقات المدرسين وأهل العلم " (١٥) .

وقد يقدر لبعضهم فضل المجاورة (١٦) فيمكنون في مكة المكرمة إلى حين الأجل ، أو يقضون زمناً ليس بالقصير في تعليم الناس ووعظهم وتقديم الصدقات إلى المحتاجين منهم (١٧) ، ومنهم من يرجع إلى بلاده يحمل معه العلم الذي تعلمه وينشره في الأفق بين الناس كاملاً غير منقوص .

وقد اعتنى أمراء مكة والمدينة بتنشيط الحياة الثقافية في الحرمين الشريفين وجعلها محج القاصدين للتعلم و التعليم ، وممن اشتهر من هؤلاء الأمراء الأمير عجلان بن رميثة بن أبي نمي (ت ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م) الذي كان مكرماً لأهل السنة في مكة، جواداً حليماً كريماً سمحاً، وفي أيامه رغب كثير من التجار في سكنى مكة لعدله وحسن سيرته، وأنشأ مدرسة للعلم في الجانب الشمالي من المسجد الحرام . كما كان ابنه حسن بن عجلان (ت ٨٢٩هـ / ١٤٢٥م) من أفاضل الأمراء اهتماماً بالعلم والعلماء الوافدين إلى مكة و المجاورين بها ، كما كان حريصاً على حضور

مجالس العلم وانشائه المؤسسات التعليمية ووقف الأوقاف عليها، وواصل ابنه بركات بن حسن بن عجلان (ت ٨٥٩هـ / ١٤٥٤م) رعايته للعلم ومؤسساته ولا غرو فقد كان هو من العلماء في الحديث وله مساهمات أدبية وشعرية^(١٨).

ولم تكن الحياة العلمية نشطة في رحاب الحرم المكي فحسب بل أنشئت كثير من المدارس المنتشرة في أرجاء مكة المكرمة. خلال فترة الدراسة. وكان الغرض منها مساندة الدور العلمي للمسجد الحرام وما تعقد فيه من حلقات علمية في شتى المعارف الدينية ومن بين هذه المدارس يمكن أن نذكر: مدرسة النهاوندي، التي ظلت أكثر من مائتي سنة، حيث انشئت في العصر الأيوبي حوالي سنة (٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) وكان موقعها بالموضع الذي يقال له الدرية^(١٩)، ومدرسة ابن الحداد المهدي، وهي خاصة بالمالكين سنة (٦٣٨هـ / ١٢٤٠م) وتعرف بمدرسة الأدارسة، بقرب باب الشبيكة^(٢٠). ومدرسة دار العجلة التي أنشئت سنة (٧٢٠هـ / ١٣٢٠م) وتقع بدار العجلة القديمة على يسار الداخل إلى المسجد الحرام، أنشأها الأمير أرغون النائب الناصري للخليفة، ويدرس فيها على المذهب الحنفي^(٢١). والمدرسة الجمالية التي تقع عند باب الحزودة. أحد أبواب المسجد الحرام في الجهة الغربية. أنشئت سنة (٨٥٧هـ / ١٤٥٣م) ولها أوقاف بمكة^(٢٢).

وقد تمت العناية بالعلوم الدينية تحديدا في مدارس مكة المكرمة، ولم يكن للعلوم التجريبية حضورا في برامجها نظرا لما ارتبطت به بلاد الحرمين من الاهتمام بعلوم الوحي وما أبدعه المسلمون فيها من تأليف وتصانيف خدمت القرآن و السنة النبوية على حد سواء.

والجدير بالذكر أن أهل المغرب والأندلس لم يكتفوا بالشوق إلى بلاد الحرمين بقصد أداء المناسك في مكة، وزيارة الحبيب في المدينة بل أنفقوا الأموال لشراء البيوت والخانات والحوانيت والمحلات ووقفها وحبسها على المسجد الحرام قربي لله، وخدمة لحجاج بيت الله الحرام، بل إن المصادر تذكر أنه في سنة (٧٠٣هـ / ١٣٠٣م) بعث السلطان يوسف بن يعقوب المريني مع ركب الحجاج بهدية "استكثر فيها من الخيل العرب والمطايا الفاراهة يقال كان عدد الخيل والبغال والدواب أربعمائة إلى غير ذلك ما يناسب من طرف المغرب وماعونه وبعث معهم إلى حرم مكة مصحفا ضخما اعتنى به واستكتبه وجعل له غلافا مكللا بنفيس الدر وشريف الياقوت ورفيع الأحجار"^(٢٣).

وقد وصفه ابن خلدون بقوله: "مصحف رائع الصنعة، كتبه ونمقه أحمد بن الحسن الكاتب المحسن، واستوسع في جرمه وعمل غشاه من بديع الصنعة، واستكثر فيه من معالق الذهب المنظم بخرزات الدر والياقوت، وجعلت منها حصة وسط المعلق تفوق الحصيات مقدارا وشكلا وحسنا، واستكثر من الأصونة عليه"^(٢٤).

كما تمت العناية بالتعليم وطلابه في مكة المكرمة من قبل الحكام والعلماء فأسسوا الأربطة لإيواء

المشتغلين بطلب العلم ونشره، وترتيب صدقات جارية عليهم، وتحبب كتب بل أوقفوا خزائن برمتها عليهم وعلى كافة الراغبين في الاستفادة والتحصيل وذلك ابتغاء وجه الله العظيم وثوابه العميم^(٢٥). وأقدم ما عرفنا مما حبسه المغاربة من كتب ومكتبات على الحرمين أو الأريطة والمدارس بمكة والمدينة جملة من كتب الفقه المالكي التي حبسها محمد بن عبد الله المكناسي إمام المالكية بالحرم المكي الشريف عام (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) على طلبة الفقه والمذهب المالكيين بالحرم الشريف ووضعت في الركن المالكي منه، وكان من هذه الكتب المحبسة كتاب (المقرب) لابن أبي زمنين في ستة مجلدات^(٢٦).

وقد حبس أبو العباس أحمد بن علي بن أبي بكر العبدري الميورقي الأندلسي (ت ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م) مكتبته في مكة على طلبة العلم، وكانت مكتبته تشتمل على كتب نفيسة في مختلف العلوم والفنون والمعارف ولا سيما السير والتراجم والتواريخ أفاد منها تقي الدين الفاسي فيما كتب عن تاريخ مكة المكرمة^(٢٧).

كما وجدنا أن الشيخ إبراهيم التلمساني (ت ٧٦٦هـ / ١٣٦٤م) كانت له كتب جليلة في الفقه والاصول والحديث واللغة وغير ذلك حبس أكثرها بمكة، وحبس بعضها في المدرسة الشهابية بالمدينة المنورة^(٢٨).

ومما لاشك فيه أن الحركة التعليمية في مكة كانت تنشط أيام الحج حين يقدم عليها الوافدون من العلماء من شتى بقاع العالم الاسلامي، يلقون دروس الوعظ، ويفتون الحجيج، ويعلمون الطلاب، مع ما يرافق ذلك من مناقشات ومناظرات بين علماء المذاهب الاسلامية المختلفة، ويمكن تصنيف المدرسين في الحرم المكي إلى ثلاث فئات حسب تعيينهم:

١. فئة تلقي دروسها تطوعا، احتسابا للأجر من الله تعالى

٢. فئة يعينها أحد كبار رجال الدولة، لتدريس درس في فقه مذهب من المذاهب، أو درس في الحديث

٣. فئة يعينها السلطان لتدريس درس في الفقه، مثل دروس السلطان الأشرف شعبان في فقه المذاهب الأربعة، ودرس الحديث^(٢٩).

وهناك فرق بين نظام التدريس في المسجد الحرام و المدارس بمكة، وهو البرنامج الدراسي اليومي، حيث أن الواقف على المدرسة يقيد المدرس و الطالب بوقت معين لإلقاء درسه وحضوره، ويلزمه بتدريس مذهب دون آخر، لأن الجميع ملزم ببرنامج دراسي لا بد من إتمامه، بينما يختلف الأمر بالنسبة للمسجد الحرام، حيث المدرسون يلقون دروسهم في مختلف العلوم سواء الدينية منها أو اللغوية بدون شرط أو قيد، و هناك حرية اختيار الوقت وتغييره حسب ما تسمح به الظروف...مع

الحرية في الانتقال من مدرس إلى آخر في العلم الواحد ، كما أن هناك دروساً يلقونها بعض العلماء في بيوتهم رغبة منهم في العناية بفئة خاصة من الطلاب يجدون فيهم الإقبال والاجتهاد وحرص و المثابرة (٣٠) .

٣. الأثر العلمي في علوم الحديث:

لا شك أن السنة النبوية هي أصل من أصول الدين وركن في بنائه القويم، وهي وحي من الله إلى نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) يجب اتباعها، ولا يجوز مخالفتها .
على ذلك أجمع المسلمون، وتضافرت الآيات على وجه قاطع لا يدع مجالاً للشك في حجيتها ، فمن أنكرها فقد خالف الأدلة الشرعية الموجبة القطعي لاتباعها ، واتبع غير سبيل المؤمنين .
وهي بوجه عام: "كل ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية" (٣١) .

وقد جاءت الآيات القرآنية الدالة على حجية السنة النبوية، ومن الآيات في ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۗ﴾ (النجم : ٣-٤) ، وقوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۗ﴾ (النحل : ٤٤) ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣١ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ٣٢﴾ (آل عمران : ٣١-٣٢) .

وفي السنة النبوية ورد عن العرياض بن سارية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : " أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبَدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّدِينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ" (٣٢) .

وعلى هذا الأساس فإن أهل المغرب من علماء وطلاب علم أولوا السنة النبوية عناية فائقة، وبنلوا في خدمتها جهوداً معتبرة، و يرحلون من قطر إلى قطر ومن مصر إلى مصر، ويتلقى بعضهم عن بعض، ويعرضون الكتب والمسموعات على الشيوخ، وكان لهم نشاط علمي في نقد الرجال، وتمحيص الأحاديث، ومصنّفات جياذ في علل الحديث، وتاريخ الرواة وعلوم الحديث عامة. ولما كان الحديث يعتمد بالدرجة الأولى على السماع والرواية والحفظ أكثر من اعتماده على التدوين والكتابة فقد اعتنى العلماء المحدثون من اصحاب الصحاح و المسانيد و السنن خلال القرون السابقة عن القرن السابع الهجري على حفظ هذه الكتب، ورواية الأحاديث بأسانيدھا التي ذكرت فيها، وإلغاء ما تم كشفه من المدسوس فيها مع العناية بشرحها وذلك بتصنيف شروح عليها، أو تخريجات منها، أو مختصرات لها، أو التذييل عليها .

ويمكن أن نذكر من أهل المغرب الأوسط الذين استوطنوا أرض الحجاز وبالذات في مكة المكرمة ورووا وأسمعوا وعلموا ودرّسوا:

ومن هؤلاء . جعفر بن عبد الرحمان بن جعفر بن عثمان بن عبد الله السلمي الصقلي المحتد، المولد البجائي (٥٨٨-٦٤٤هـ / ١١٩٢-١٢٤٦م) مقررٍ وفقهه ومحدث^(٣٣) ،
وأيضاً علي بن أبي نصر فاتح ابن عبد الله أبو الحسن البجائي (ت ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م) فقيه مالكي له علو السند في الحديث ، وسنده في البخاري من أعلى الأسانيد^(٣٤) .
ومنهم أبو محمد عبد الله بن موسى الزواوي (كان حياً سنة ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م) سمع منه الحسن بن عبد الله المنبجي (ت ٧٤٢هـ / ١٣٤١م) بعض الأحاديث والآثار السبعيات والثمانيات، من حديث مؤنسة خاتون بنت الملك العادل^(٣٥) .

وكذلك خليل بن هارون بن مهدي بن عيسى بن محمد أبو الخير الصنهاجي الجزائري المغربي المالكي نزيل مكة .. ولقي هناك جماعة من العلماء وحفظ عنهم كما حفظ عن لقي من علماء مصر والشام، ومن قرأ عنهم نذكر ابن صديق والزين المراغي والقاضي علي النويري والشريف عبدالرحمن الفاسي وأبي اليمن الطبري وغيرهم وبالمدينة على إبراهيم بن علي بن فرحون والعلم سليمان السقا. وتمت إجازته عنهم، وقد خرج له ربيبة الحافظ الجمال محمد بن موسى المراكشي فهرستا لبعض مسموعاته لم يكمل، وله "الأحاديث القدسيات و"تذكرة الإعداد لهول يوم المعاد " في الأذكار والدعوات وهو كتاب كثير الفوائد اختصره النقي ابن فهد وأورد عنه لبعضهم شعراً، كما أن له "أشرف مسموع في تحقيق ابحاث الموضوع"، توفي في الثامن من رمضان سنة ٨٢٦هـ / ٤٢٣م)، ودفن بالبقيع رحمة الله عليه"^(٣٦).

٤ . الأثر العلمي في علوم الفقه :

إن الدين الإسلامي استطاع أن ينشئ أمة ذات رسالة عالمية تكمن في طياتها عوامل بقائها لما في تعاليمها من صلاحية لكل زمان ومكان ، وتسوس حياة الناس في كل جنات الحياة ومناشطها ، وهي تتابع الإنسان من مهده إلى لحدده، وتضبط حركته في الكون وفق نصوص شرعية واضحة. بدءاً من علاقة المرء بربه، إلى علاقته بغيره، أو بعبارة أخرى من الأحوال الشخصية إلى العلاقات الدولية... مما يؤكد أن الأمة الإسلامية ليست أمة سائبة، بل هي أمة ملتزمة بعقيدة وشرعية... والفقهاء هو الذي يضبط الدورة الحضارية للأمة بأحكام الشرع، متناغمة إيقاعاتها الحضارية مع ما يريده الإسلام، وما يأمر به، وما ينهى عنه...

ولهذا جمعت أبواب هذا الفقه مباحث الطهارة كما شملت عقود البيوع وعهود الأمان وأحكام ضابطة لدنيا الناس في السلم و الحرب.

وقد ضمت كتب الفقه المحيط العديد من الأحكام الفردية والأسرية والسياسية والدستورية والمالية والدولية، مع استبحار في حياة الإنسان بشكل لا نظير له في ثقافة أخرى... مما جعل الفقهاء هم الذين تصدروا الإفتاء في الدولة، وتقلدوا مناصب القضاء، لكونهم أعلم الناس بالكتاب والسنة والقياس والإجماع، وأفقههم في تنزيل أحكام الشارع في دنيا الناس، وما يطرأ فيها من أفضية ونوازل.

وقد حفلت الحياة الفقهية بوجود مدرستين رائدتين في خدمة الفقه الإسلامي، قطعوا بهما أشواطاً في مدارج الرقيّ الفكري والتنظيري والتنظيمي والتشريعي، الذي تغلغل في كل شيء من دنيا الناس، حتى أصبح من لوازم المجتمع الإسلامي في القرى والمدائن يعرفها الخاص والعام، وهما مدرسة الحديث ومدرسة الرأي، اللتان نضج بهما واكتمل بهما البناء الفقهي في التشريع الإسلامي.

ومن علماء المغرب الأوسط المشغولين بالفقه الإسلامي واستوطنوا أرض الحرمين، وكان لهم مجاورة في البيت الحرام يمكن أن نذكر منهم :

أبو علي عمر بن أحمد العمري البجائي (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٥م) فقيه، رحل إلى مكة وتوفي بها (٣٧).

وكذلك أبو علي حسن بن خلف اهله بن حسن بن أبي القاسم بن ميمون بن باديس القيسي القسنطيني (٧٠٧-٧٨٤هـ / ١٣٠٧-١٣٨٢م) فقيه، نزل بمكة وجاور بها، لقي في رحلته بالحجاز أعلاماً كثيرة وأخذ عنهم... (٣٨).

ومنهم، محمد بن محمد بن ميمون أبو عبد الله الجزائري المعروف بابن الفخار (ت ٨٠١هـ / ١٣٩٩م) فقيه مالكي، وصف بالصلاح والخير، قدم إلى القاهرة، وجاور بمكة، ومات بها (٣٩).

عبد القوي بن محمد بن عبد القوي بن أحمد أبو أحمد محمد البجائي، انتقل إلى مصر في شبابه، وأخذ العلم عن الشيخ يحيى الزهراني وغيره من علماء الأزهر، ثم رحل إلى مكة فدرّس بالمسجد الحرام وأفتى الناس فيه، إلا أنه لم يكن أكثر من الافتاء وذلك لتورعه عنه، بالرغم مما كان يستظهر من روايات الأحاديث والأشعار، وكان معروفاً بحسن تتسكه وعبادته، وجاور بمكة زمناً يزيد على الثلاثين سنة، وولد له بمكة أولاد، توفي بمكة في الثالث من شوال سنة (٨١٦هـ / ١٤١٣م) وقد تتادى الناس لجنازته وحمل نعشه الأعيان تبركاً به (٤٠).

ومنهم : محمد بن موسى بن عائذ أبو عبد الله الغماري المغربي الوانوعي المالكي نزيل مكة / وشيخ رباط الموفق بها، عرف بالعبادة وفعل الخير وقضاء حوائج الناس، وقد تولى مشيخة رباط الموفق والنظر في مصالحه زمناً طويلاً، وألقى دروساً حضرها قاضي مكة في تحرير ابن الحاجب و المختصر الفرعيين وغيرها من مصنفات الفقه المالكي وكان يجيز طلابه فيها .

مما جعله محل ثقة صاحب مكة الشريف حسن بن عجلان فأكرمه وقبل شفاعته لحسن اعتقاده فيه ، توفي في التاسع عشر من صفر سنة (٨٢٧هـ / ١٣٥٥م) وشهد جمع غفير جنازته ، حتى النساء من خدورهن خرجن يشهدن دفنه ، وصلي عليه من الغد بالشبيكة أسفل مكة بوصية منه ودفن هناك عند بعض أولاده" (٤١) .

ومنهم : أحمد بن يحيى بن عيسى بن عياش بن إبراهيم العوكلي القسنطيني، عالم مالكي من أهل قسنطينة ، نزيل مكة وشيخ رباط الموفى، وكان ماهراً في آلات التجارة، توفي سنة (٨٦٠هـ / ١٤٥٦م) (٤٢) .

ومنهم : " عثمان بن يوسف بن محمد بن علي الصنهاجي المغربي نزيل مكة في رباط الموفق منها وأحد المعتقدين، قدم مكة حاجاً وتردد بينها وبين المدينة زماناً وتزايد اعتقاد الناس فيه مع انجماعه عنهم وجمعه بين العلم والدين والصلاح، مات بمكة سنة ٨63هـ / ١٤٥٨م) " (٤٣) .

ومنهم أحمد بن يونس بن سعيد بن عيسى القسنطيني (ت ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م) فقيه مالكي وعلامة في كثير من فنون العلم، جاور في مكة والمدينة، وله رسالة في ترجيح ذكر الصلاة وغيرها وأجوبة عن أسئلة وفتاوى فقهية وردت عليه من صنعاء سماها " المغالطات الصنعانية " (٤٤) .

ومنهم: عبد الرحمن بن محمد بن فاضل بن عبد الرحمن، زين الدين الجزائري، ويعرف بابن فاضل: وهو عالم، من أهل مدينة الجزائر وأحد فقائها المالكيين، رحل إلى الحجاز، واستوطن مكة إلى أن مات، قال السخاوي: "لازمي في المجاورة الثانية بها رواية ودراية، وكان خيراً"، توفي سنة ٨٨١هـ / ١٤٧٦م) (٤٥) .

ومنهم : إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن (يحيى بن أحمد بن سليمان الصدقاوي، الزواوي ، فقيه مالكي، له إمام بالتفسير، نشأ وتعلم في بجاية وإليها نسبته، رحل إلى المشرق وسكن بالمدينة المنورة مدة، ثم انتقل إلى مكة وأقام بها إلى أن مات سنة (٨٨٢هـ / ١٤٧٧م) وهو ابن ست وستين سنة (٤٦) .

منهم : " محمد بن محمد بن محمد بن يحيى بن أبي علي، ابو الطيب النقاوسي، القسنطيني: قاض، مفسر، لغوي، منطقي، أصولي، من فقهاء المالكية، ولد بنقاوس، وتعلم بقسنطينة وتونس، ثم انتقل إلى مصر فأخذ عن كبار علماء القاهرة. وفي غضون إقامته بها حج، واستوطن الحجاز، ثم دخل الديار المصرية، فكانت اقامته نحو ثلاثة اشهر، ثم رجع إلى مكة ، قال السخاوي : " فلقيته هناك، فأقام بها إلى أن سافر إلى طيبة في أواخر سنة ٨٩٧هـ، فأقرأ هناك بعض الطلبة وعزم على استيطانها" (٤٧) .

ومنهم : خليفة بن عبد الرحمن بن خليفة بن سلامة المتتاني ثم البجائي: فقيه، من العلماء الزهاد

الصلحاء، رحل إلى المشرق، ولقي السخاوي وأخذ عنه، ثم أخذ عن قاضي مكة، قال السخاوي: لقيته بمكة، ثم سافر مع بني جبر ليقوم عندهم مدرسا أو قاضيا^(٤٨). توفي في القرن التاسع الهجري /الخامس عشر الميلادي .

ولا بد أن نشير هنا إلى أنه بالرغم من الحركة التعليمية النشطة في مكة المكرمة إلا أن هناك عقبات تحول دون ازدهار هذه الحركة العلمية الفقهية نتيجة للتعصب المذهبي ومنهج الدروس الموقوفة في المسجد الحرام أو في بعض المدارس ، حيث يلتزم المفتي بمذهبه فقط دون اعتبار الأخذ بأراء المذاهب الأخرى ، كما أن تعيين أربعة قضاة على المذاهب السنية الأربعة ووجود أربعة أئمة في المسجد الحرام ضاعف من الخلاف بين المسلمين وزاد من حدة التعصب المذهبي بينهم ، مع ما ينتج هذا الوضع من جمود في الفكر وضمور في الإبداع ، وإلزام الطلاب بترديد محفوظات المذهب وحفظها دون الاهتمام بالمناقشة و الحوار و الجدل العلمي النافع^(٤٩) .

كما أن انشغال القيادات السياسية في تلك الفترة (سلاطين المماليك وأشرف مكة) بالخصومات السياسية المتجددة ، و التنافس على حكم الحرمين ، جعلهم يهملون الاهتمام بالنواحي العلمية في بلاد الحجاز ، وقد يرجع ذلك للمستوى التعليمي لهؤلاء الحاكمين ، وتنشئتهم على القيادة العسكرية والأخذ بحظ ضئيل من المعارف العلمية^(٥٠) .

ويظهر أنه في القرن التاسع و العاشر الهجريين الخامس عشر و السادس عشر الميلاديين " لم نعرف رحلات مكتوبة نظرا لانشغال المغاربة عموما بالدفاع عن ديارهم بعد سقوط غرناطة فانشغل العلماء عن الحج وقاد بعضهم الجهاد من الرباطات و الثغور وانزوى آخرون للعبادة وتكوين المريدين ، وخشي آخرون من أخطار الطريق إلى الحرمين الشريفين .."^(٥١) .

و يبدو أن الحكم المركزي في الجزائر مع مطالع العهد العثماني وقيام حواضر كقسنطينة في الشرق وتلمسان في الغرب جعل العلماء أوفر حظا في تدوين رحلاتهم وتسجيل مشاهداتهم وحفظ مذكراتهم . وظهرت الرحلات المكتوبة بعد أن كانت شفوية لفترة ليست بالقصيرة ، مثل رحلة أحمد البوني ، وأحمد بن عمار ، و الحسين الورتلاني ، وعبد الرزاق بن حمادوش ، وأبو راس الناصري ، ومحمد بن علي السنوسي ، وحمدان لونيبي ، و البشير الإبراهيمي .. وغيرهم .

الخاتمة

ومما سبق يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية :

- الظروف السياسية التي كانت تمر بها بلاد الغرب الإسلامي عموماً وبلاد المغرب الأوسط على الخصوص كانت عاملاً قوياً لازدياد الراحلين إلى بلاد الحجاز طلباً للعلم أو رغبة في أداء نسك ، أو حبا في مجاورة البيت الحرام .
- لم يكن العصر المملوكي الذي حكم أهله بلاد الحجاز عصر ظلام وتخلف وضآلة علمية كما يتوهم البعض ، بل كان عصراً مؤزراً بالحركة العلمية زاخراً بالتصانيف في العلوم المختلفة ، حاضراً بموسوعاته العلمية في مختلف المعارف و الفنون .
- كانت فترة حكم بركات بن حسن بن عجلان (ت ٨٥٩هـ / ١٤٥٤م) فترة استقرار ورخاء وأمن وانجاز لمآثر كثيرة في مكة المكرمة خلال ست وعشرين سنة ، ثم حكم من بعده حفيده محمد بن بركات (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٤م) الذي حكم قرابة ٤٤ سنة وهي أطول فترة تولاها أمير مكة بمفرده دون انقطاع ، ولم يحدث فيها اضطرابات ولا عزل ، مما جعل الحياة العلمية تشهد عصرها الذهبي خلال هذه الفترة.
- اهتمام سلاطين وملوك دول المغرب الإسلامي بركن الحج ، ويظهر ذلك من خلال إقامة دليل لركب المغاربة وهو ركب يعتنى به من قبل السلطان ، لتأمين طريق الحج على نحو ما قام به المماليك في مصر .
- قلة العلماء المتوجهين إلى الحجاز في القرن السابع الهجري ، نظراً لرغبة أغلبهم في التوجه إلى مصر ثم إلى الشام .
- تبين أن أغلب العلماء الذين هاجروا إلى مكة متعلمين أو مدرسين أو مجاورين هم من ذوي الكفاءات العلمية العالية.
- أغلب الرحلات العلمية كان أهلها مشغولين بالدراسات الشرعية أكثر من الدراسات الانسانية والكونية ، وهذا راجع لطبيعة أهل المغرب وتلفهم لتعلم العلوم المرتبطة بالوحي الأعلى ، لارتباط هذه العلوم بدنيا الناس وحاجتهم إليها وتعبدتهم بها .
- لعل أكثر ما ألفه فقهاء الحجاز في تلك الفترة ما يختص بفقهاء الحج ، وبيان مناسكه ، لأن كثيراً من الحجاج و المعتمرين يحتاجون إلى تلك الكتب التي توضح أهم ما يحتاجه الحاج وما يفعله.
- القرن التاسع الهجري هو أكثر القرون التي شهدت هجرة كبيرة للعلماء إلى بلاد الحجاز لا من حيث عددهم الهائل فحسب ، بل أيضاً من حيث تنوعهم.
- لم يكن الراحلون إلى مكة المكرمة ملتزمين بالتعلم و التعليم داخل الحرم المكي فحسب بل كانوا منتشرين في الأربطة و المدارس و المؤسسات العلمية في أرجاء مكة كلها .

- كان لنشاط حركة المجاورين أثر كبير في تنشيط الحياة العلمية ورعاية المؤسسات التعليمية في الحرمين ، وخاصة في مكة المكرمة .
 - غياب الدور العلمي للمرأة المغربية في حين شارك نساء الحجاز في شتى العلوم و ألقين الدروس ، وحصلن على الإجازات ، وأشرفن على الأربطة .
 - اعتماد الحرم المكي والمدارس العلمية في مكة على نظام الوقف وحده يجعل النظام في المدارس يختل أحيانا مع نضوب الأموال، مما نشأ عنه تعطل المدارس، وافتراق المدرسين .
 - لم تقصم مصادر تراجم العلماء عن طبيعة التحصيل العلمي ، هل كان هذا التحصيل مقتصرًا على الدروس التي يلقونها شيوخ مكة و المدينة ؟ وهل كان هذا التحصيل سماعًا أو قراءة أو رواية ، والغالب أن الشائع في تلك الفترة هو السماع .
 - لم يكن كل العلماء الوافدين على مكة المكرمة ممن بقي بها وتوفي في أرضها الطاهرة بل بعضهم جاور فترة من الزمن وتعلم وقرأ وأقرأ العلوم في الحرم ثم رجع إلى بلاده لينشر العلم ويمنح الإجازات ويفقه الناس .
 - ليس كل من قصد بلاد الحجاز وجاور بأرض الحرمين ترك رحلة مكتوبة ، ولو أنهم فعلوا لأصبح بين أيدينا تراث ضخم من أدب الرحلة ، وما يزرخ به من تدوين للحياة الاجتماعية والثقافية في أرض الحجاز .
 - إن أغلب المصادر التي تترجم لأهل المغرب تفيض بجهود العلماء المغاربة في صنوف شتى من العلوم و المعارف ، ولكنهم حين يرحلون إلى المشرق تضعف العناية بالترجمة لهم ، والأمر نفسه حين يرحل علماء المشرق إلى بلاد المغرب أو الأندلس فإن كتب الأعلام تتجاهلهم وتتخطاهم في كثير من الأحيان .
 - إن تراث المغاربة العلمي في حواضر المشرق الإسلامي لا تزال تحتاج إلى متابعة ورصد ، للكشف عن علماء المغرب بأقاليمه الثلاث (الأدنى والأوسط والأقصى) وخاصة في ظل ما تم الكشف عنه من مخطوطات ومصادر أصيلة ، وخاصة مع سهولة ويسر الوصول إلى النصوص في عصر فتوح الرقمنة الجديد .
- التوصيات:

- إن الدور العلمي لرحلات الحج يمكن أن يكون موضوعاً لكثير من البحوث نظراً لغزارته وتنوع مضامينه ،وتعدد الأقاليم التي يقصد منها الناس الحج إلى بيت الله الحرام . وخاصة أقاليم بلاد المشرق في خراسان وما وراء النهر ، وبلاد الهند و الصين وجنوب شرق آسيا .

الهوامش

١. سعد الله ، أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ط١، دار الغرب الاسلامي، بيروت ، ١٩٩٨م ، ج١/ص ٤٠.
٢. يخلف ، حاج عبد القادر ، مصطلح المغرب الأوسط في المصادر الاسلامية الوسيطة ، مجلة عصور جديدة ، جامعة وهران الجزائر ١ ، مجلد ٧ ، العدد ٢٦ ، ٢٠١٦/٢٠١٧م ، ص ١٦٥-١٦٦.
٣. البكري، أبو عبيد عبد الله، المسالك والممالك، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ١٩٩٢م، ج٢/ص ٧٤٦.
٤. الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله الشريف، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٩هـ، ج١/ص ٢٥٠.
٥. الحميري ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق : إحسان عباس ، ط٢، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت ، ١٩٨٠م ، ص ١٣٥.
٦. ابن خلدون ، عبد الرحمن ، العبر ، تحقيق : خليل شحادة ، بيروت : ٢٠٠١م ، ج٦/ص ٤٢٠.
٧. يخلف، حاج عبد القادر، مصطلح المغرب الأوسط في المصادر الاسلامية الوسيطة، مرجع سابق ، ص ١٦٦. للإشارة فإن مصطلح المغرب الأوسط أطلق في ما بعد على ما يعرف اليوم باسم (الجزائر) .
٨. سعد الله، أبو القاسم، على خطى المسلمين حراك في التناقض، ط١، عالم المعرفة، الجزائر، ٢٠٠٩م، ص ٣٣.
٩. ابن حزم ، رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها ، نقلها المقري في، نفح الطيب ، ج٣/ص ١٧٨.
١٠. المصدر نفسه ، ج٣/ص ١٧٧.
١١. عشي، علي، مساهمة علماء المغرب الأوسط في مجال العلوم العقلية ما بين القرنين ٩هـ/١٤ او ١٥م، مجلة دراسات وأبحاث، جامعة زيان عاشور - الجلفة-الجزائر، مج٦، العدد ١٦، ص ١٩٢-٢١١، ١٥-٠٩-٢٠١٥م
١٢. السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التوريج، تحقيق : سالم بن غتر بن سالم الظفيري، ط١، دار الصمعي للنشر والتوزيع، الرياض ، ٢٠١٧م ، ص ٤٥٠.
١٣. الرباط: وجمعها أربطة، وهي في البداية أنشئت لأغراض عسكرية، للدفاع عن ثغور الدولة الاسلامية، وقد اشتق اسمها من الرباط في سبيل الله، ومنه سميت دعوة المرابطين ودولتهم، وقد كان المرابطون يؤهلون روحيا وعلميا وعسكريا داخل هذه الأربطة، ومع توقف حركة الفتوح تقلص دور هذه الأربطة واقتصر على الدور الروحي والعلمي.
١٤. أنظر: عبد الرؤوف زواري أحمد، العلاقات العلمية بين المغرب الأوسط والحجاز خلال القرنين ٧-٩هـ /١٣-١٥م، أطروحة دكتوراه -قسم التاريخ، جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي، الجزائر، ٢٠٢٠/٢٠٢١م، ص ٩٠.
١٥. ابن جبير . محمد بن أحمد ، رحلة ابن جبير ، ط١، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ص ٦٨.
١٦. مدة المجاورة لم تكن محددة ولكنها تطول أو تقصر تبعا لغرض المجاور و ظروفه ، وقد تمتد إلى أن يدرك الموت المجاور فينال شرف الدفن بالبقيع المقدسة . ولم يكن المجاورون عنصرا سلبيا في المجتمع المكي بل كانوا يعيشون في عمق المجتمع فيؤثرون فيه ويتأثرون به ، وقد حملوا معهم كثيرا من عادات مجتمعاتهم الأصلية

الدور العلمي لبعض علماء المغرب الأوسط في مكة المكرمة ما بين القرنين ٧-١٠هـ/١٣-١٦م
(علوم الحديث والفقهاء أنموذجاً)

د. نجيب بن خيرة

- ونشروها في مكة المكرمة . انظر : البلوي شادية عبد الرحمن ، المجاورون في مكة في القرنين السابع و الثامن للهجرة ، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية . مج ١، ع ٣، سبتمبر ٢٠١٧م ، ص ١٧٦.
- ١٧ . انظر : ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن محمد ، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ ، ج ١/ص ٣٩١.
- ١٨ . الخزرجي، أبو الحسن موفق الدين، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق: محمد بن علي الأكوح الحوالي، ط١، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٣م، ج ٢/ص ١٥٩، السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣/ص ١٣-١٤، بالأعرج، عبد الرحمن، دور رحلات الحج في التواصل الثقافي بين المغرب و المشرق، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مجلة علمية دورية متخصصة محكمة تصدر عن مركز الحكمة للبحوث والدراسات - الجزائر، ج ٤، العدد ٨، ص ١٨٧-١٩٥، ١٠-٩-٢٠١٦.
- ١٩ . الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد المكي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م، ج ١/ص ٤٣٠، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨م ، ج ١/ص ٢٨١.
- ٢٠ . الفاسي، شفاء الغرام، ج ١/ص ٤٣٠، العقد الثمين ، ج ١/ص ٢٨١.
- ٢١ . المصدر نفسه، ج ٦/ص ٢٥١، وانظر: المزيني، عبد الرحمن بن سليمان، الحياة العلمية في مكة والمدينة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، العدد ٤، ٢٠٠٣م، ص ١١٣-١٢٦.
- ٢٢ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٧/ص ٢٨٧، الطاسان ، مرجع محمد بن صالح، التعليم في مكة في العهد المملوكي، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، جدة ، ١٩٩٥م ، مج ٨، ص ٣١.
- ٢٣ . السلاوي ، شهاب الدين ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق : جعفر ومحمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء (د، ت) ، ص ج ٣/ص ٨٣. المنوني ، محمد ، ورفقات عن حضارة المرينيين ، ط ٣، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ٢٠٠٠م ، ص ١٧٢.
- ٢٤ . ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر، تحقيق: خليل شحادة، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م، ج ٧/ص ٢٩٩.
- ٢٥ . الوراكلي ، حسن ، أحباس المغاربة في الحرمين الشريفين ، بحث مقدم لمؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م ، ص ٦٧-٨٤.
- ٢٦ . الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ج ٢/ص ٧٤، الوراكلي ، حسن ، أحباس المغاربة في الحرمين الشريفين، مرجع سابق ، ص ٧٦.
- ٢٧ الوراكلي، حسن ، أحباس المغاربة في الحرمين الشريفين، مرجع سابق، ص ٧٦.
- ٢٨ . ابن فرحون، عبد الله بن محمد المالكي، نصيحة المشاور وتعزية المجاور، دار المدينة المنورة للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، (د، ت) ص ٦٧. الوراكلي، حسن، أحباس المغاربة في الحرمين الشريفين، مرجع سابق، ص ٧٦.
- ٢٩ . الطاسان ، التعليم في مكة في العهد المملوكي ، مرجع سابق ، ص ٢٥.
- ٣٠ . انظر : المرجع نفسه . ص ٤٥-٤٧.

الدور العلمي لبعض علماء المغرب الأوسط في مكة المكرمة ما بين القرنين ٧-١٠هـ/١٣-١٦م
(علوم الحديث والفقه أنموذجاً)

د.نجيب بن خيرة

٣١. الصباغ ، محمد لطفي، الحديث النبوي. مصطلحه . بلاغته . كتيبه ، ط٥، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق ، ١٩٨٦م. ص ١١٧ وما بعدها.
٣٢. رواه أبو داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة، حديث (٤٦٠٧)، والترمذي في كتاب العلم عند رسول الله، باب ماجاء في الأخذ بالسنة واجتباب البدع، حديث (٢٦٧٦)، وابن ماجه في كتاب المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، حديث (٤٢).
٣٣. الفاسي، تقي الدين، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م ، ج ٣/ص٤٢٦.
٣٤. الغبريني ، عنوان الدراية ، ص ٦٦-٦٨.
٣٥. الفاسي ، العقد الثمين ، ج ٣/ص٣٤٦. ج ٦/ص ٢٢٦.
٣٦. السخاوي ، شمس الدين ، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ط١، الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٩٣م ، ج ١/ص٣٢٣. كحالة ، عمر رضا ، معجم المؤلفين،: مكتبة المثنى، بيروت ، ج ٤/ص ١٣٠.
٣٧. الغبريني ، عنوان الدراية ، ص ١٢٤، نويهض ، عادل، مُعْجَمُ أعلام الجزائر - من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر، ط٢،: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ص ٣٩.
٣٨. ابن قنفذ القسنطيني ، أبي العباس أحمد بن حسن . الوفيات . تحقيق : عادل نويهض ، ط٤، بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٣م ، ص ٣٧٦، عادل نويهض . معجم أعلام الجزائر . ص ٢٧-٢٨.
٣٩. الفاسي . العقد الثمين . ج ٢/ص ٣٨٤. المقريزي ، تقي الدين . المقفى الكبير. تحقيق : محمد اليعلاوي، ط٢، بيروت : دار الغرب الاسلامي، ٢٠٠٦م ، ج ٧/ص ٥٣.
٤٠. الفاسي . العقد الثمين . ج ٥/ص ١٠٣. السخاوي، شمس الدين، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، : منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (د،ت) ، ج ٤/ص ٣٠٢. نويهض، عادل ، معجم أعلام الجزائر، ص ٢١٦.
٤١. السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ١٠/ص ٥٥.
٤٢. السخاوي ، الضوء اللامع، ج ٢/ص ٢٤٣. نويهض، عادل ، معجم أعلام الجزائر، ص ٢٤٦.
٤٣. السخاوي . الضوء اللامع . ج ٥/ص ١٤٣.
٤٤. الجابري، خالد محسن حسان، الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي. ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، رسالة ماجستير في الحضارة والنظم الاسلامية -جامعة أم القرى -مكة المكرمة، ١٩٩٣م، ج ٢/ص ٤٨٨.
٤٥. السخاوي ، الضوء اللامع، ج ٤/ص ١٤٣، نويهض ، عادل ، معجم أعلام الجزائر، ص ١٠٣.
٤٦. نويهض ، عادل، معجم أعلام الجزائر، ص ٣٢.
٤٧. السخاوي ، الضوء اللامع، ج ١٠/ص ٧، نويهض، عادل ، معجم أعلام الجزائر، ص ٣٣٢.
٤٨. السخاوي، الضوء اللامع ، ج ٣//ص ١٨٦-١٨٧. نويهض ، عادل ، معجم أعلام الجزائر، ص ٣٥.
٤٩. أنظر : الطاسان ، التعليم في مكة في العهد المملوكي ، مرجع سابق، ص ٥٠.
٥٠. الطاسان ، التعليم في مكة في العهد المملوكي ، مرجع سابق، ص ٥١.
٥١. سعد الله ، ابو القاسم ، على خطى المسلمين حراك في التناقض، مرجع سابق ، ص ٣٧.

المصادر :

١. ابن جبير . محمد بن أحمد ، رحلة ابن جبير، ط١، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت .
٢. ابن خلدون ، عبد الرحمن ، العبر ، تحقيق : خليل شحادة ، بيروت : ٢٠٠١م .
٣. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر، تحقيق: خليل شحادة، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م .
٤. ابن فرحون ، عبد الله بن محمد المالكي ، نصيحة المشاور وتعزية المجاور ، دار المدينة المنورة للنشر و التوزيع ، المدينة المنورة ، (د، ت) .
٥. ابن قنفذ القسنطيني ، أبي العباس أحمد بن حسن . الوفيات . تحقيق : عادل نويهض ، ط٤، بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٣م .
٦. الإدريسي ، محمد بن محمد بن عبد الله الشريف ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط١، عالم الكتب، بيروت ، ١٤٠٩هـ .
٧. انظر : ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن محمد ، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ .
٨. البكري ، أبو عبيد عبد الله ، المسالك والممالك، دار الغرب الاسلامي، بيروت ، ١٩٩٢م
٩. الحميري ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق : إحسان عباس ، ط٢، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت ، ١٩٨٠م .
١٠. الخزرجي ، أبو الحسن موفق الدين ، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق : محمد بن علي الأكوح الحوالي، ط١، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٣م .
١١. السخاوي، شمس الدين، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ط١، الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٩٣م .
١٢. السخاوي، شمس الدين، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، : منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (د، ت) .
١٣. السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التوريف، تحقيق : سالم بن غتر بن سالم الظفيري، ط١، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض ، ٢٠١٧م .
١٤. السلاوي ، شهاب الدين، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق : جعفر ومحمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء (د، ت) .

١٥. الفاسي ، تقي الدين محمد بن أحمد المكي ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ط١، : دار الكتب العلمية، بيروت ، ٢٠٠٠م
١٦. الفاسي ، تقي الدين محمد بن أحمد المكي العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، ط١، : دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨م .
١٧. الفاسي، تقي الدين ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، ، بيروت، ١٩٩٨م .
١٨. المقرئزي ، تقي الدين . المقفى الكبير. تحقيق : محمد اليعلاوي، ط٢، بيروت : دار الغرب الاسلامي، ٢٠٠٦م .

المراجع الحديثة

١. بالأعرج، عبد الرحمن ، دور رحلات الحج في التواصل الثقافي بين المغرب و المشرق ، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية ، مجلة علمية دورية متخصصة محكمة تصدر عن مركز الحكمة للبحوث والدراسات - الجزائر ، ج٤، العدد ٨.
٢. البلوي شادية عبد الرحمن، المجاورون في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، مج١، ع ٣، سبتمبر ٢٠١٧م .
٣. الجابري، خالد محسن حسان، الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي. ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، رسالة ماجستير في الحضارة والنظم الاسلامية -جامعة أم القرى -مكة المكرمة، ١٩٩٣م .
٤. سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ط١، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.
٥. سعد الله، أبو القاسم، على خطى المسلمين حراك في التناقض، ط١، عالم المعرفة ، الجزائر ، ٢٠٠٩م .
٦. الصباغ ، محمد لطفي، الحديث النبوي. مصطلحه . بلاغته . كتبه، ط٥، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق ، ١٩٨٦م.
٧. الطاسان ، مرجع محمد بن صالح، التعليم في مكة في العهد المملوكي، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، جدة ، ١٩٩٥م .
٨. عبد الرؤوف زواري أحمد ، العلاقات العلمية بين المغرب الأوسط و الحجاز خلال القرنين ٧-٩هـ /١٣-١٥م ، أطروحة دكتوراه -قسم التاريخ ، جامعة الشهيد حمه لخضر -الوادي ، الجزائر ، ٢٠٢٠/٢٠٢١م .

٩. عشي، علي، مساهمة علماء المغرب الأوسط في مجال العلوم العقلية ما بين القرنين ٨ و٩هـ /١٤ و١٥م، مجلة دراسات وأبحاث، جامعة زيان عاشور، الجزائر، مج ٦، العدد ١٦.
١٠. المزيني، عبد الرحمن بن سليمان، الحياة العلمية في مكة والمدينة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، العدد ٤، ٢٠٠٣م .
١١. المنوني، محمد، ورقات عن حضارة المرينيين، ط ٣، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م .
١٢. نويهض ، عادل، مُعْجَمُ أعلام الجزائر - من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر، ط ٢، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠م .
١٣. الوراكلي، حسن، أحباس المغاربة في الحرمين الشريفين، بحث مقدم لمؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م .
١٤. يخلف، حاج عبد القادر، مصطلح المغرب الأوسط في المصادر الإسلامية الوسيطة، مجلة عصور جديدة، جامعة وهران الجزائر، ١، مجلد ٧، العدد ٢٦، ٢٠١٦/٢٠١٧م
- المراجع الأجنبية :

A,S,Tritton, Materials On Muslim Education In The Middle Ages, Luzac,
LTD, London, 1954